جامعة اليرموك– إربد

المملكة الأردنية الهاشمية

مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر

27– 29/07/2010م.

المرجعيات في النقد والأدب واللغة

الحلقة المفقودة في مرجعيات النظرية اللسانية العربية

بقلم: محمد شندول– كلية الآداب بالقيروان– تونس.

– تمهيد:

يذهب كثير من الدارسين لتاريخ اللغة العربية إلى أن النحو العربي أسسه الخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت حوالي 170 هـ) بكتابه "العين"، وسيبويه (ت حوالي 180 هـ) بكتابه "الكتاب"، وأغفلوا ما قبل ذلك اعتقادا منهم أن ما سبق هذين الكتابين كان نتفا قليلة ليست ذات بال.

ونحن نعتبر المرحلة التي سبقت هاذين الكتابين حلقة غامضة تتطلب البحث االدقيق للوقوف على المرجعيات الأولى لظهورهما، لأن إغفال ذلك إقصاء لجهود لغوية جمة سابقة، وطمس لمرحلة لا بد من الكشف عنها.

إننا لا نعتقد أن ما أورده كل من الخليل وسيبويه من الآراء اللغوية والمفاهيم والمصطلحات اللغوية هو وليد عصرهما فقط، ذلك أنه لا بدّ من أن تكون سبقتهما مرحلة تأسيس أولية إذ ليس من الممكن الاعتقاد بأنّ كتاب العين للخليل والكتاب لسيبويه كانا طفرة . إنهما في اعتقادنا، ثمرة جهود لغوية سابقة. وبناءا على ذلك فإننا نحاول في بحثنا هذا أن نتقصى نشأة النحو العربي تقصيا يأخذ في الاعتبار كل مراحل اللغة دون إقصاء لأي مرحلة وأي جهد لغوي، وذلك من أجل اسكمال مرجعيات النظرية اللسانية العربية و الوقوف على المرحلة التي يمكن أن نسميها "الحلقة المفقودة" أو "الحلقة الغامضة" اعتمادا على رؤية إبستيمولوجية ونقدية تضع أصول اللغة في مواضعها الحقيقية من مراحل نشأتها، وتقدّم الصورة الكاملة لكيفية نشأة النظرية اللسانية العربية.

و من الأكيد أنه وجدت أسباب وعوامل مهدت لنشأة هذه النظرية إذ أنّ كل حدث ثقافيا كان أو غير ثقافي لا ينشأ من عدم، بل لا بد من توفر ما يساعد على ظهوره. و أسباب نشأة النظرية اللسانية باعتبارها حدثا ثقافيا، وكذلك عواملها و مظاهرها، بدأت في البروز بجلاء، في ما نرى، منذ فجر الإسلام لتفضي في أواخر القرن الثاني للهجرة إلى تأليف كتاب العين للخليل والكتاب لسيبويه. وهذه الحقبة التي تمتد من فجر الإسلام إلى عصر الخليل وسيبويه هي الحلقة التي نرى استئثارها بالبحث ونسعى إلى تبيّنها من خلال تقديم جملة الأسباب والعوامل التي نرى أنها حفّت بالدرس اللغوي العربي وكانت من عناصر ولادته ونموه، لنبحث بعد ذلك عن تجليات هذا الدرس في مظاهره الصوتية والصرفية والنحوية، وصولا إلى

تقديم ما يمكن أن يكون إجابة عن السؤالين: ما هي أولى حلقات نشأة النظرية اللسانية العربية ؟ ومتى بدأت ؟ وذلك من أجل وضع النظرية اللسانية العربية في موضعها الصحيح من مرجعياتها اللغوية.

وبناءا على ما ذكرنا، فإننا نحاول أن نبرز هذه العناصر الثلاثة : الأسباب (Causes)، و العوامل (Effets) ، والمظاهر (Aspects) ، وهو منهج بحث متبع في علمي التاريخ و الجغرافيا لتفسير ظهور الحوادث. واعتبارا منا أن كتاب العين للخليل والكتاب لسيبويه هما حدثان ثقافيان لا يختلفان في طبيعة ظهورهما عن أيّ حدث آخر، فإننا نجري هذا المنهج في عملنا هذا بحسب ما نستطيع، وذلك في إطار مقاربة نروم من خلالها تقديم إجابة عما طرحنا من الأسئلة، علّ هذه المقاربة تكون مساهمة في إزاحة بعض الغموض الذي ساد أولى مراحل ظهور النحو العربي. ونقوم في البداية بتبيّن الأسباب التي دعت إلى نشأة ذلك الدرس اللغوي.

1- أسباب نشأة الدرس اللغوي العربي:

اختلفت الأجوبة عن أسباب نشأة الدرس اللغوي العربي. ومن أبرز هذه الأجوبة ما ذهب إليه المستشرقون. فقد اعتبر هؤلاء أن حاجة الأجانب الذين دخلوا الإسلام إلى معرفة اللغة العربية كان هو السبب، فوضع الأجانب من الفرس والآراميين النحو العربي مثلما ذهب إلى ذلك فون كريمر[1] ، أو استعانوا في ذلك بالمنطق اليوناني الذي انتهى إلى العرب عن طريق السريان كما ادعى ذلك لشنستر في مبحث "نحو" في دائرة المعارف الأسلامية [2] ، و كارتر (M. G, Carter) **في مبحثه "دراسة في مبادئ التحليل النحوي عند سيبويه"**[3] ، وجيرار تروبو (G, Troupeau) في مبحثه " تفكير ابن المقفع وجذور النحو العربي" [4] .

ولن نجادل في بحثنا هذا ما قيل من آراء. فقد تناول بعض هذه الآراء، وخاصة آراء المستشرقين، باحثون آخرون[5]. ولذلك نكتفي من البحث، من ناحيتنا، بما يساعد على معرفة ما يسمى "بالحلقة المفقودة" في تاريخ النحو العربي لنتبيّن هل توجد في مسيرة النحو العربي حلقة مفقودة أم لا توجد. ولا يكون ذلك في نظرنا، إلا من خلال البحث في تاريخ العربية ذاتها حتى تكون نتائج البحث من طبيعة ذلك التاريخ. وبناءا على ذلك يكون منطلق بحثنا النظر في الأسباب التي دعت إلى ظهور النحو العربي. فما هي

---

[1] كريمر: الحضارة الإسلامية ، ص90.

[2] ينظر: الخثران: مراحل تطور الدرس النحوي، ص 43 .

[3] ينظر: Carter(M. G) : *A Study of Sibawayhi's Principles of Grammatical Analysis.*

[4] Troupeau (G.) :La Logique D'Ibn Al-Muqaffa' Et Les Origines De La Grammaire Arabe

[5] ينظر مثلا: Hadj salah(A.): Les origines de la grammaire arabe, Revue des études islamiques, 40L 1972, pp. 69-97 .

تلك الأسباب ؟ وفيم تمثلت ؟ وهل كانت كافية لتكون لبروز الحلقة الأولى من نشأة النظرية اللسانية العربية؟

الباحث في نشأة علم النحو العربي يتبيّن له إجماع بأن الدوافع الرئيسية لنشأته كانت داخلية. وقد لخصنا جميع هذه الدوافع في سببين نبيّنهما في الفقرة التالية.

1 -1 ظهور اللحن:

بدأ اللحن على الألسنة حسب ما تذكر الروايات، منذ عهد النبوة. ومن الروايات المتواترة في ذلك أن الرسول سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال: أَرْشِدوا أخاكم فقد ضلّ"[6] .

وقد خشي العرب المسلمون من تسرب ذلك اللحن إلى قراءة القرآن فسعوا إلى المحافظة على سلامة لغتهم. وقد تحدث ابن خلدون عن ذلك في مقدمته، فقال:" لمّا فسدت مَلكة اللسان العربي في الحركات المسمَّاة عند أهل النحو بالإعراب . . . فاسْتُعْمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ، مَيْلاً مع هِجْنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حِفْظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس ، وما ينشأ عن الجهل بالقرآن والحديث، فَشَمَّر كثير من أئمة اللغة واللسان لذلك وأَمْلَوا فيه الدواوين"[7].

ويمكن أن يندرج في سياق الحديث عن ظاهرة اللحن ما أصبح يلاحظ في المجتمع الإسلامي منذ عهد الخلفاء الراشدين، من تزاوج لغوي. فقد كانت توجد مجموعة من اللغات المتداولة إلى جانب العربية، منها الفارسية والسريانية. وهذا التزاوج اللغوي لا بدّ أنه أثار انتباه المهتمين بوصف اللغة العربية النقية، لأن من شأن هذا التزاوج أن يؤدي إلى اتساع الفوارق بين اللغة الفصيحة واللغة المحكيَّة. وفي ذلك ورد عن عمر بن شبة أنه قال: "حدثنا حيان بن بشر، حدثنا يحي بن آدم، عن أبي بكر، عن عاصم، قال: جاء أبو الأسود إلى زياد فقال: أرى العرب قد خالطت العجم فتغيرت ألسنتهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاما يقيمون به كلامهم؟ قال: لا، قال : فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنون . فقال: ادع لي أبا الأسود . فدعي، فقال : ضع للناس الذي نهيتك عنه"[8].

---

[6] ينظر : ابن جني : الخصائص، 8/1 .
[7] ابن خلدون: المقدمة، ص 340 .
[8] ينظر : سير أعلام النبلاء (معجم إلكتروني)، الموقع: http://alminbar.al-islam.com/Alam.aspx?nid=11822

1-2 الرغبة في تقنين اللغة:

كانت هذه الرغبة متأتية من الخلفاء والولاة وأهل العلم باللغة لنشر الدين إلى الأقوام المختلفة والأجيال المتعاقبة، وهي رغبة تتطلب بالضرورة وضع القواعد اللغوية ليتمكن الناس من تعلم العربية وفهم القرآن. وفي ذلك يقول ابن خلدون أيضا (المقدمة، ص 546): " وخشي أهل العلوم منهم أن تَفْسُدَ تلك المَلَكة رأسًا ويطول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا مِنْ مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطَّردة شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام". أما من الروايات في ذلك "أن رجلاً فارسياً دخل الإسلام ثم لحن في كلامه فضحك عليه بعض من حضر. وكان أبو الأسود حاضراً فقال: " هؤلاء الموالي رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه فصاروا لنا أخوة فلو علمناهم الكلام"[9].

وتبيّن الروايتان التي أوردنا آنفا، وسائر ما جاء من أمثالهما في المراجع التاريخية، أن الذين انشغلوا بأمر اللغة هم فئة من الخاصة ممن كان لهم إحساس بنظاميتها ودراية ببعض أوضاعها. وقد رأى هؤلاء ضرورة أن يتجلى ذلك في جهد نظري يكشف عمّا في اللغة العربية من القوانين والأنظمة صيانة للقرآن من اللحن، وسبيلا إلى نقل أوضاعها إلى الأجيال، وطريقا إلى تعليمها لغير العرب من المسلمين. ومثّل هذه الفئة من الخاصة كما هو ملاحظ في الروايتين أعلاه، طائفتان: طائفة من الساسة ، وطائفة من أهل العلم.

1-2-1 تشجيع الساسة على تقنين اللغة العربية والكشف عن نظامها:

يعد تشجيع الساسة على إنجاز أي مشروع واتخاذ قرار سياسي ملزم لتنفيذه من أهم أسباب النجاح. وهذا ما حدث بالنسبة إلى الدرس اللغوي العربي عندما نبحث في أسباب انبعاثه. فقد كانت الدعوة إلى العناية باللغة ونظامها من جهة أهل الحل والعقد من الساسة منذ عهد النبوة. ونحيل في هذا الصدد إلى قول الرسول: "أَرْشِدوا أخاكم فقد ضلّ" في الفقرة:1-1 أعلاه. أما من جاء بعد الرسول، فإن الروايات تذكر عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب، من الخلفاء، وزياد ابن أبيه والحجاج بن يوسف من الولاة. وقد أمر هؤلاء الساسة العلماءَ بتتبع لغة العرب واستنباط أحكامها وقواعدها ونشر ذلك بين الناس. وهذا يجعلهم في نظرنا، طبقة مهمة ممن ساهم في بدإ التأسيس للنظرية اللسانية العربية. فالمراجع تكشف أن عمر بن الخطاب كان ممن أمر بوضع أحكام اللغة ، وأنه كان مع ذلك، على دراية بأحكام الإعراب. فقد روى القرطبيعن أبي مُلَيكة أن أعرابيًّا كان في زمن خلافته، فقال : مَنْ يُقرئني ممَّا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فأقرأه رجل سورة "براءة "، فقرأ : "أنَّ اللهَ بريءٌ من المشْرِكِين ورَسُولِه (التوبة:3)" – بجرِّ رسوله – فقال الأعرابي : أوقَدْ بَرِئ اللهُ من رسولِه ؟ فإن يكن الله بَرِئ من رسوله فأنا أبرأُ منه . فبلغ عمر

---

[9] الوردي (علي) : أبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو العربي، الموقع :
http://www.malak-rouhi.com/vb/t5119.html

مقالة الأعرابي فدعاه فقال : يا أعرابيُّ ، أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إني قدمْتُ المدينة ، ولا علمَ لي بالقرآن فسألت : مَنْ يقرئني ؟ فأقرأني هذا سورة براءة فقال : "أنَّ الله بريء من المشركين ورسولِه ". فقلت : أوقد بَرِئَ الله من رسوله ؟ إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه. فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي . قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين ؟ قال: "ورسولُه". فقال الأعرابي : وأنا أبرأ ممَّن برئ الله ورسولُه منه ، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألاَّ يُقرئَ الناسَ إلا عالمٌ باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو"[10] .

وتذكر الروايات أيضا، أن علي بن أبي طالب، كان ممن أمر من الخلفاء باسقراء نظام اللغة العربية. فقد كان كذلك منشغلا في عهد خلافته، بأمر اللغة ، وكان مدركا لبعض الأسس الرئيسية لمكونات نظامها مثل أقسام الكلام ومظاهر العمل الإعرابي، وكذلك كان شاعرا بضرورة أن يستغل ذلك علماء اللغة لاستنباط سائر الأحكام وترويج ما يتوصلون إليه بين الناس. فكان قراره أن أمر أبا الأسود الدؤلي بالشروع في ذلك. فقد جاء عن يعقوب الحضرمي أنه قال: حدثنا سعيد بن سلم الباهلي، حدثنا أبي عن جدي عن أبي الأسود قال : دخلت على علي، فرأيته مطرقا، فقلت : فيم تتفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: سمعت ببلدكم لحنا، فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا. فأتيته بعد أيام، فألقى إلي صحيفة فيها : الكلام كله اسم ، وفعل ، وحرف . فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. ثم قال لي: زده وتتبعه (...)"[11] .

ومن الروايات أيضا ما ذكره الزبيدي[12] . فقد أورد "أن أبا الأسود أخذ النحو عن علي رضي الله عنه لأنه سمع لحنًا، فقال لأبي الأسود: اجعل للناس حروفًا، وأشار إلى الرفع والنصب والجر".

وهتان الروايتان تشيران معا، كما هو بيّن، إلى أمر علي أحدَ علماء اللغة وهو أبو الأسود الدؤلي، باستنباط نظام اللغة العربية. كما تشير الأولى منهما إلى إدراكه لأقسام الكلام وحثه أن يكون ذلك منطلقا لتأسيس الدرس اللغوي، وتشير الثانية إلى معرفته بمظاهر العمل الإعرابي وإلى أن يكون ذلك أيضا جزءا من ذلك الدرس.

ولم يختلف زياد ابن أبيه (ت 53 هـ)، والحجاج ابن يوسف (ت 95 هـ)، وهما من الولاة، عن الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب في دورهما في التأسيس للنحو العربي. فقد أمرا أيضا بتتبع لغة العرب واستنباط قواعدها ونظامها. وفي ذلك ورد عن عمر بن شبة أنه قال: "حدثنا حيان بن بشر، حدثنا يحي بن آدم، عن أبي بكر، عن عاصم، قال: جاء أبو الأسود إلى زياد [ابن أبيه] فقال: أرى العرب

---

[10] ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص 19.
[11] ينظر سير أعلام النبلاء(معجم إلكتروني) ، الموقع: http://alminbar.al-islam.com/Alam.aspx?nid=11822
[12] الزبيدي:: طبقات النحويين، ص 24.

قد خالطت العجم فتغيرت ألسنتهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاما يقيمون به كلامهم؟ قال: لا، قال : فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنون. فقال: ادع لي أبا الأسود. فدعي، فقال : ضع للناس الذي نهيتك عنه"[13].

وفي شأن الحجاج بن يوسف، ذكر يونس بن حبيب رواية تبين اهتمامه باللغة، قال: قال الحجاج لابن يعمر: اتسمعني ألحن على المنبر؟ قال: الأميرُ أفصحُ من ذلك. فألحّ عليه. فقال: حَرْفًا. قال: أيّا ؟ قال: في القرآن. قال الحجّاج: ذلك أشنع له، فما هو؟ قال: تقول: "قُلْ إنْ كَانَ آباؤُكُمْ وأبناؤُكُمْ" إلى قوله عزّ وجلّ : "أحبَّ" ، فتقرؤها : "أحَبُّ" بالرفع. والوجه أن تقرأ بالنصب على خبر كان. قال: لا جُرْمَ، لا تَسمعُ لي لحنا أبدا (...) "[14] .

ومما ورد عن الحجّاج أيضا في شأن عنايته باللغة، أنه لما لاحظ كثرة التصحيف في قراءة القرآن فزع إلى كتّابه وأمر نصر بن عاصم (ت 89 هـ)أن يضع لمحروف المتشابهة علامات[15] . وروي أيضا أنه جمع قراء البصرة واختار منهم الحسن البصري، وأبا العالية، ونصر بن عاصم، وعاصم الجحدري، ومالك بن دينار وأمرهم بدراسة إحصائية لما في القرآن من الحروف والكلمات والآيات والسور، ففعلوا وأجمعوا على أن كلماته سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة، و أن عدد حروفه ثلاثمئة وثلاثة وعشرون ألف و وخمسة عشر (323015)حرفا، وأنّ عدد آياته ستة آلاف أية، وعدد سوره مائة وأربع عشرة سورة[16] .

تبرز هذه الروايات التي أوردنا أن الدعوة إلى تأسيس النحو العربي كانت صادرة من أهل الحلّ والعقد من الساسة. وهو ما يدعو إلى القول بأن بناء النظرية اللسانية العربية كان من البداية قائما على قوة دفع نافذة مصدرها السلطة السياسية التي كانت لها ورغبة ملحة في تحقيقها، ووعي مسبق بإمكانية إنجازها [17].

1-2-2 وجود طائفة كبيرة من العلماء المهتمين باللغة:

تبينا في الفقرة الآنفة أن البحث اللغوي كان بأمر من السلطة السياسية. ويكتشف المتتبع لتراجم اللغويين والنحويين أنهم كانوا جميعا حريصين على تنفيذ هذا المشروع بنقتضى ذلك الأمر، وبدافع الرغبة

---

[13] ينظر : سير أعلام النبلاء (معجم إلكتروني)، الموقع: http://alminbar.al-islam.com/Alam.aspx?nid=11822

[14] الزبيدي: طبقات النحويين، ص28 ؛ ابن سلام: طبقات الشعراء، ص 6

[15] ينظر : ابن خلكان: وفيات، 32/2.

[16] ينظر: الزركشي: البرهان، 249/1.

[17] لم يكن الحث على العلم وتدوينه وقفا على من ذكرنا. فقد ذكر الزبيدي أنه "لم تزل الأئمة من الصحابة الراشدين ومن تلاهم من التابعين، يحضون على تعليم العربية وحفظها، والرعاية لمعانيها (طبقات النحويين، ص 12). ولا بدّ أن يكون في ذلك دفع قوي للجهود اللغوية.

الذاتية في ذلك[18]. واستتباعا لذلك يصبح حرص علماء اللغة على وصف نظام اللغة العربية سببا آخر في ظهور الدرس اللغوي العربي. ويصبح أعلام اللغة الأوائل، وهم أبو الأسود ومن تلقى عنه الدرس اللغوي وصولا إلى الخليل بن أحمد، مما يجب الكشف عنه لمعرفة المصادر الأولى لتأسيس النظرية اللسانية العربية. فمن هم إذن هؤلاء الأعلام ؟ وهل هم من العدد والكفاءة ما يؤهلهم لأن يكونوا مصادر الحلقة الأولى التي تعد مفقودة في النظرية اللسانية العربية ؟

للإجابة عن السؤالين، نورد ما ذكره محمد بن سلام الجمحي (ت 231 هـ) في طبقاته، قال: "وكان ممن أخذ ذلك عنه (عن أبي الأسود) يحي بن يعمر (...) وأخذ ذلك عنه أيضا ميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم الليثي ، وغيرهم"[19].

وكل هؤلاء على حدّ عبارة الزبيدي "وضعوا للنحو أبوابا ، وأصّلوا له أصولا ، وكان لأبي الأسود في ذلك فضل السبق وشرف التقدم ، ثم وصل ما أصّلوه من ذلك التالون لهم ، والآخذون عنهم، فكان لكل واحد منهم من الفضل بحسب ما بسط من القول ، ومد من القياس ، وفتق من المعاني، وأوضح من الدلائل ، وبين من العلل"[20] .

ويقتضي ما قاله كل من ابن سلام والزبيدي تبين طبقات هؤلاء الأعلام وغيرهم ممن عاش في حقبة ما بين أبي الأسود والخليل ابن أحمد، وذلك بحسب ما لكل واحد من المنزلة العلمية التي تستوجب ذكره. فما هي هذه الطبقات ؟

يذكر ابن سلام أنه "كان لأهل البصرة في العربية قدمة بالنحو وبلغات العرب والغريب عناية"[21]. ولذلك فإن طبقات اللغويين بصرية في بدايتها. ولم تظهر طبقات الكوفيين إلا لاحقا مع بروز إمام مدرسة الكوفة علي بن حمزة الكسائي (ت 189 هـ).

ويقسم أصحاب كتب الطبقات علماء اللغة الذين عاشوا خلال الفترة التي ندرس، إلى طبقتين بصريتين هما:

1-2-2-1 الطبقة البصرية الأولى:

وأهم أعلامها هم:

---

[18] أول من وجه إليه أمر الكشف عن أسس النظرية اللسانية العربية أبو الأسود الدؤلي. وسبق أبي الأسود لغيره في وضع أسس هذا المشروع جعل قيمته في تاريخ العربية، ترجع إلى أنه هو أول من قارب العربية مقاربة نظرية قوامها الوصف وهدفها وضع الضوابط المجردة.

[19] ابن سلام: طبقات الشعراء ، ص5 .

[20] ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص5 ؛ ينظر أيضا : الزبيدي : طبقات النحويين ص11

[21] ابن سلام: طبقات الشعراء، ص 5 .

1) أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي (ولد في عهد النبوة، وتوفي سنة 69 هـ) [22]:

مقرئ، قرأ القرآن على عثمان وعلي، وروى عن ابن عباس وغيره، واستعمله عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب. وكان من وجوه التابعين وفقهاؤهم ومحدثيهم، و من وجوه الشيعة ، ومن أكملهم عقلا ورأيا ، كلفه علي بن أبي طالب بوضع النحو لما رآه في من حصافة في الرأي. فكان أول من وضع النحو. وكان معاصرا لأبي موسى الأشعري (ت 42 هـ).

2) نصر بن عاصم (ت 89 هـ) [23]:

مقرئ، قرأ القرآن على أبي الأسود، وكان في مذهبه يرى رأي الخوارج .وكان فقيها وأستاذا في القراءة والنحو. وقد ندبه الحجاج ن يوسف لتنقيط القرآن بهدف تمييز الحروف المتشابهة من بعضها، فجعل لهذه الحروف نقاطاً سوداء أفراداً وأزواجاً.

3) عبد الرحمان بن هرمز (ت 117 هـ) [24]:

هو أحد تلامذة أبي الأسود. يعرف بـ"الأعرج"، وهو مقرئ، قرأ على أبي هريرة، وعنه أخذ نافع بن نعيم المدني. كان عالما بالنحو والأنساب، وكان مالك بن أنس يأتيه ليعرف منه أصول الدين.

4) يحي بن يعمر (ت 129 هـ) [25]:

هو أبو سليمان العدواني البصري ، ويكنى أبا عدي ، مقرئ، قرأ القرآن على أبي الأسود الدؤلي، وعنه أخذ النحو. وكان محدثا وعالما بالغريب. وهو ممن ساهم في نقط المصحف.

وينتمي إلى هذه الطبقة أيضا أعلام آخرون اختزلت كتب الطبقات تراجمهم فضلا عمن أغفلتهم. ومن هؤلاء: أبو حرب وعطاء ابنا أبي الأسود الدؤلي، وعنبسة بن معدان الفيل (ت حوالي سنة 100 هـ)، وميمون الأقرن (ت 117 هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي(ت 118 هـ)، وسعد بن شداد المعروف بالرابية، ومعاوية بن عمرو الديلي.

1-2-2-2 الطبقة البصرية الثانية:

---

[22] ينظر في الترجمة له : ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص19 ؛ المعرفة (معجم إلكتروني): أبو الأسود الدؤلي؛ الاصبهاني(أبو الفرج): الأغاني (فقرة: أخبار أبي الأسود الدؤلي ونسبه)، 11/ 101.

[23] ينظر في الترجمة له : ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص 23-24 .

[24] ينظر في الترجمة له : الزبيدي: طبقات النحويين، ص 26 ؛ ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص 24 .

[25] ينظر في الترجمة له : سير أعلام النبلاء (معجم إلكتروني)، الموقع: http://alminbar.al-islam.com/Alam.aspx?nid=17344 ؛ مكرم (عبد العال): تاريخ النحو ، ص 83-84 (يشير المؤلف في الصفحتين المذكورتين إلى أن نصر بن عاصم ويحي بن يعمر اشتركا في التنقيط كل من ناحيته. على أن الروايات تشير إلى أن تنقيط الإعجام كان تباعا. وفي ذلك يذكر الداني في محكمه (ص2) أن القرآن كان مجردًا في المصاحف ، فأول ما أحدثوا فيه النَّقْط على الياء والتاء (...) ثم أحدثوا فيها نُقَطًا عند منتهى الآي ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم.

نكتفي منها بالتعريف بثلاثة من أشهر أعلامها، وهم : عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر الثقفي، أبو عمر بن العلاء.

1) عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117 هـ)[26] :

توفي في أيام هشام بن عبد الملك . ويعد من أشهر علماء هذه الطبقة، كان إماما في العربية والقراءة ، أخذ عن ميمون الأقرن و نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ، بلغ الغاية في النحو حتى قال فيه يونس بن حبيب : هو والنحو سواء .وهو أول مَن علل النحو ، و من أشد الناس أخذا بالقياس والعمل به، وكان في ذلك كثير السؤال للفرزدق والاعتراض عليه في شعره. وقد تكلم في الهمز و عمل فيه كتابا مما أملاه.

2) عيسى بن عمر الثقفي(ت 149 هـ)[27] :

توفي في عهد خلافة أبي جعفر المنصور. ويعد من أشهر علماء هذه الطبفة كذلك. أخذ النحو عن عبد الله بن أبي إسحاق وغيره ، وأخذ عنه النحو الخليل بن أحمد وسيبويه ، كان ثقة، وعالما بالنحو والقراءة، له صحبة مع أبي عمرو بن العلاء، وجرت بينهما مسائل ومجالس. وقد كان يطعن على العرب ويخطئ المشهورين منهم كالنابغة الذبياني في بعض أشعاره. عرف بولعه بالغريب ، و في ذلك روي أنه قال مرة عندما سقط عن حماره: "مالي أراكم تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جنة، افرنقعوا عني". وهو صاحب كتابين لم يصلا إلينا هما:"الجامع" و "الإكمال في النحو".

3) أبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ)[28] :

توفي في عهد خلافة أبي جعفر المنصور، أخذ النحو عن نصر بن عاصم وغيره. وعنه أخذ أكثر نحاة عصره ، اشتهر بالقراءة وبسعة علمه بكلام العرب ولهجات القبائل وغريب اللغة. وكان يجمع اللغة من أفواه الأعراب الذين أدركوا الجاهلية. وكان يعتد بالسماع ويأخذ بالغالب في الاستعمال، وفي ذلك قال ابن نوفل: سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: : أخبرني عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ قال: لا ، فقلت كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال أعمل على الأكثر وأسمي ماخالفني لغات"[29]. مات ولم يترك أثرا مكتوبا؛ وقيل إنه لما تنسك أحرق ما بين يديه من الكتب، وتفرد للعبادة.

---

[26] ينظر في ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين، ص 31-34 ؛ ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص 26- 28.
[27] ينظر في ترجمته: ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص 28- 30؛ القفطي: إنباه الرواة ، 377/2 .
[28] ينظر في ترجمته: الزبيدي: طبقات النحويين، ص 35-40 ؛ ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص 26 – 28.
[29] الزبيدي: طبقات النحويين، ص 39 .

ويمثل هؤلاء الأعلام أساتذة للخليل بن أحمد ومن كان معاصرا له من علماء اللغة . على أن الخليل ومن عاصره من الأساتذة والتلاميذ من البصرة والكوفة يمثلون بدورهم طبقة، وهي طبقة أكثر عمقا في النظر إلى قضايا اللغة بعد الاستفادة من الجهود السابقة، وقد كان من أعلامها من اشتهر بعلمه شهرة واسعة مثل وسيبويه (ت 180 هـ) ويونس بن حبيب(ت 182 هـ) من البصريين ، وعلي بن حمزة الكسائي (ت 189 هـ)، وأبي جعفر محمد بن الحسين الرؤاسي (ت 190 هـ) من الكوفيين. ولذلك يندرج ما انتشر بين هؤلاء الأعلام من مؤلفات وما كان يدور من مجااس ومناضرات، ضمن المرجعيات الأولى أيضا لبناء النظرية اللسانية العربية. وبذلك يمكن القول إن النظرية اللسانية العربية في عهد الخليل كان لها من الرافد السابقة والمعاصرة ما جعلها على قدر من النضج لم يفت الخليل أن يسجل مظاهرها في كتابه العين، ليكون كتابه هذا صورة لما انتهى إليه البحث اللغوي من عهد النبوة إلى الربع القبل الأخير من القرن الثاني الهجري . ومعنى هذا أن الحاصل مما ذكرنا أنه قد توفر خلال تلك المرحلة من الأسباب ما كان كافيا لنشأة النظرية اللسانية العربية. فالخوف من انتشار اللحن، ورغبة أولي الأمر في تحقيق مشروع اللغة العربية المتمثل في تقعيد نظامها، وحرص عدد كاف من العلماء الأكفاء على تنفيذ ذلك المشروع وتعاقبهم في شكل طبقات على اسكماله، هو مما أدى إلى بروز المشروع واضحا , معالمه العامة قبيل نهاية القرن الثاني الهجري.

على أنه قد وجدت أيضا عوامل ساعدت هي بدورها في عملية انبعاث ذلك المشروع. فما تجدر إليه الإشارة في ترجمة من أوردنا من الأعلام، أن هؤلاء الأعلام لم يكونوا ملمين فقط بعلم النحو في حدّ ذاته، بل كانوا ملمين بما يسمى في عصرهم "العربية". ويعني مصطلح "العربية" عندهم حسب ما يستفاد من تراجمهم ، اللغة العربية في نحوها من حيث هي إعراب وتصريف، وفي معجمها من حيث هي أصوات صرف ومفردات فصيحة وغريبة ولهجية، و في بلاغتها من حيث هي بيان وبديع، وفي أدبها من حيث هي رواية للأشعار والأقوال المأثورة، وفي آدائها من حيث هي أداة تواصل و قراءات قرآنية . فمفهوم العربية إذن كان عندهم مفهوما شاملا جعل النظر إلى الدرس اللساني يتسم بالشمولية أيضا [30]. وفي إطار هذا التصور، تندرج جملة من العوامل التي ساعدت في نظرنا على نشأة النظرية اللسانية العربية.

2– العوامل المساعدة على نشأة النظرية اللسانية العربية:

نقدّم في هذه الفقرة عددا من العوامل مما أصبح من المسلمات. وعليه فإننا نذكر هذه العوامل دون أن نحتاج إلى التدليل عليها لأنّ محاولة التدليل ستكون ابتذالا أوتكرارا لبعض ما جاءت به الدراسات المختصة في ذلك . ونجمل ما نذكره من العوامل في ثلاثة هي:

---

[30] راجع في مثل ما ذهبنا إليه: الخثران: الدرس النحوي، ص 59-36 .

2-1 انتشار القراءة والكتابة:

كانت الكتابة منتشرة بشكل ملحوظ في اليمن والشام والعراق بسبب الحضارة التي كانت سائدة هناك، كحضارة اللخميين في العراق، وحضارة الغساسنة في الشام، والحضارة اليمنية.

وتثبت الدراسات أن الكتابة كانت موجودة أيضا في مكة و المدينة ، وأن من العرب في جاهلية وعهد النبوة من كان يحسن القراءة والكتابة. ففي رواية عن زياد بن أنعم أنه قال: "قلت لعبد الله بن عباس: معاشر قريش، هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي، تجمعون فيه ما اجتمع، وتفرقون فيه ما افترق هجاء بالألف واللام والميم، والشكل والقطع،وما يكتب به اليوم قبل أن يبعث الله تعالى محمدا (صلعم) ؟ قال: نعم (...)"[31] . أما الأدلة على ذلك فمنها:

1) وجود المعاهدات المكتوبة ، ومن ذلك المعاهدة التي عقدها زعماء قريش فيما بينهم لمقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب بسبب حمايتهم للرسول محمد[32] ، والمعاهدة بين المسلمين واليهود التي عقدها الرسول بالمدينة[33] .

2) وجود المراسلات، حيث يرسل أحدهم إلى آخر بعيدا عنه رسالة في موضوع ما عادة ما يكون هاما، مثل رسالة بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب بن زهير ينبهه فيها بأن الرسول أهدر دمه[34].

3) وجود الصحائف الدينية كصحيفة لقمان، وهي صحيفة فيها حِكَم لقمان كانت لسُويد بن صامت[35].

4) وجود المعلقات ، وهي نخبة الأشعار التي تعلق بالكعبة.

وكان ممن يحسن الكتابة حين دخل الإسلام، عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وطلحة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وأبان بن سعيد بن العاص بن أميّة، وخالد بن سعيد أخوه، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح العامري، وحويطب بن عبد العزى العامري، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، وجهيم بن الصلت، ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمي ". كما كان من نسائهم من يكتبن، كحفصة وأم كلثوم من زوجات الرسول ، والشفاء بنت عبد الله العدوية، وكانت عائشة أم المؤمنين تقرأ المصحف ولا تكتب، وكذلك أم سلمة[36].

---

[31] الداني: نقط المصاحف، ص 26.
[32] ينظر : ابن هشام: سيرة ابن هشام، ص 80-81.
[33] ينظر المرجع نفسه، ص 122-126.
[34] ينظر المرجع نفسه، ص ص 280-281 .
[35] ينظر: صالح زيادنة : اللغة العربية في فجر الإسلام وأواخر العصر الجاهلي ، في موقع الواب:
http://www.khayma.com/salehzayadneh/language/lang04.htm
[36] ينظر المرجع السابق ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 8/ 321-356.

واتسع نشاط الكتابة والقراءة في فجر الإسلام. وتجلى ذلك في تدوين المصحف في عهد الرسول وفي عهد خلافة عثمان بن عفان. فقد استكب الرسول لما قدم المدينة أُبيّ بن كعب الأنصاري و زيد بن ثابت الأنصاري، ثم كتب له بعد ذلك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ثم عثمان بن عفان، وشرحبيل بن حسنة، وأبان بن سعيد، وخالد بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، ومعاوية بن أبي سفيان، الخ...[37]

ونكتفي من الأدلة بما ذكرنا، ففي كتب التاريخ العربية وكتب السيرة النبوية أدلة أخرى كثيرة، بل إن كثرة الأدلة ليس هي هدفنا وإنما هدفنا أن نبيّن من خلال ما نذكر من الأدلة أربعة أمور نرى أن وجودها يعد عاملا أساسيا في قيام الدرس اللغوي. وهذه الأمور الأربعة هي :

1) استقرار اللغة العربية من حيث هي مادة وأداء قابلين للوصف.

2) 4) استقرار رسم الحروف الألفبائية.

3)اكتمال اللغة العربية من حيث القدرة على التعبير عن أقصى ما يكون من الأغراض.وهو ما يبرزه الإنتاج الأدبي الغزير الذي تجلت صوره النموذجية من خلال المعلقات.

4) اجتماع اللهجات في لغة مشتركة هي اللغة التواصل العامة ، تنطقها كل قبيلة في الجزيرة العربية وتفهمها، وبها ينظم الشعر، وتبرم العقود، وترسم الكتابة، و تتلى القراءة.

واستتباعا لهذه النتائج الأربع فإنه يمكن أن يقوم الدرس اللغوي النظري لتوفر شرطه وهو اكتمال اللغة ونضجها من حيث المكونات والأداء، واستقرارها في الاستعمال،فيكون استقرار اللغة بذلك عاملا رئيسيا في دراسة نظامها.

2-2 حركة رواية اللغة والأدب والحديث النبوي والقراءات القرآنية :

اهتم اللغويون، والأدباء، منذ فجر الإسلام، بحفظ القرآن ورواية أخبار العرب، وأيامهم، وأشعارهم، ولغاتهم. كما اهتم من له شأن بالفقه بجمع الأحاديث النبوية و ما أثِر عن النبي. وانطلق الجميع كل في اتجاهه، يجمع ما عنّ له، ويمحص صحيحه من ضعيفه. ولم يطرأ على طريقة الرواية في فجر الإسلام أي تغير عما كانت عليه في الجاهلية، بل إنها استمرت بشكلها القديم المتمثل في تواتر المتن عن السند مع حرص شديد على صحة الإسناد بين طبقات الرواة. فكانت الأخبار والأحاديث النبوية والقراءات القرآنية تنقل بعناية. وقد أفادت حركة الجمع هذه علماء اللغة على وجه التحديد بمدونة لغوية

[37] ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية، 8/ ص ص321-356.

أثارت كثيرا من الجدل. ويكفي من ذلك أن نشير إلى ما أناطت عنه القراءات القرآنية ورواية الأشعار من المسائل اللغوية التي تحولت عند علماء اللغة إلى مواضيع نظر ودراسة ومناظرات. والأمثلة في ذلك كثيرة، يورد بعضَها كتبُ الطبقات وبعضَها الآخرَ عددٌ من كتب التفسير. ونحن نذكر منها النماذج التالية[38]:

1)أمثلة القراءات:

أ) قراءة "أ ُمَتِّعُه" (البقرة: 126)، بالتشديد، وهي قراءة الأعرج (وهو عبد الرحمان بن هرمز كما سيجيئ في ترجمتنا له)، مؤثِرا لها على قراءة التخفيف من "أمْتَعَ". وتثير هذه القراءة مسألة صرفية هي الفعل المجرّد والمزيد.

ب) قراءة " وإذا قيل لهم(البقرة: 11) " وأخواتها: فيها قراءتان: قراءة بإشمام الضم، وقراءة بالكسر. وقراءة الأعرج بالكسر. وتثير هذه القراءة مسألة الأصل الاشتقاقي الصرفية . كما تثير مسألة صوتية تتعلق بالإمالة، وما يستحسن من الأصوات وما يستقبح.

ج) قراءة: "فتلَقَّى آدم من ربِّه كلمات" (البقرة: 37): قرأ ابن كثير بنصب آدم ورفع "كلمات"، وعلة ذلك عنده أنه جعل الكلمات تَنَقَّذَتْ آدم من الله. وقرأ الأعرج بضم "كلمات" ونصب "آدم" ، وعلة ذلك أنه جعل آدم هو الذي تلقى الكلمات. فهو فاعل، وكلمات مفعول به. وهي قضية إعرابية كما هو واضح.

د) لا النافية: قراءة "فلا رَفَث ولا فُسُوق" (البقرة: 197): قرأ ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء بالتنوين والرفع. وحجتهما في ذلك أن "لا" بمعنى ليس فارتفع الاسم بعدها، والخبر محذوف تقديره " في الحج". وقرأ الأعرج وآخرون بالفتح من غير تنوين. والوجه في ذلك أن "لا" تدل على النفي العام. وهي مسألة تتعلق بالعوامل الإعرابية.

ه) قراءة " التي أرضعنكم" (النساء: 23) بلفظ الواحد، عوض الجمع هي قراءة أعرج. وتثير هذه القراءة مسألتي الضمير العائد، و أحكام الاسم الموصول.

و) قراءة: "فيَغْفِر لِمَنْ يَشَاء ويعذِّب من يشَاء" (البقرة: 284): قراءة ابن عباس والأعرج بالنصب على إضمار "أنْ" ، وعند من قرأ بالجزم، باعتابر العطف على "يحاسبْكم " الذي هو جواب الشرط، وهذا خلاف يثير مسألة أنواع العوامل من حيث هي لفظية أوالمعنوية، ظاهرة أو مقدّرة.

---

[38] تنظر في هذه الأمثلة بالنسبة إلى أمثلة القراءات: مكرم: تاريخ النحو ، ص: 59، 62، 63، 64، 68، 72، 123. وبالنسبة إلى الأشعار، المرجع نفسه، ص: 108، 111، 113.

ز) قراءة "حتى يقول الرسول" (البقرة: 214): قرأ نافع بالرفع، وقرأ الباقون وابن أبي إسحاق بالنصب. ووجه القراءة بالنصب أنّ "حتى" جُعِلتْ غاية للزلزلة بمعنى: إلى أن، فنَصَبَتْ. ويثير هذا الاختلاف مسألة معاني الحروف العاملة.

2) أمثلة الأشعار:

أ) قال ابن أبي إسحاق للفرزدق في قوله:

مُسْتقْبلِين شمالَ الشَّام تَضْرِبُنا بِحِاصِبٍ كَنَديف القُطْنِ منثورُ

على عَمَائمنا يُلْقَى، وأرْحُلُنا على زَواحِفَ تُزْجى مُخُّها رِيرُ

أسأت، إنما هو "مُخُّهَا رِيرُ"، وكذلك قياس النحو في هذا الموضوع.

و اختلاف الرجلين في علامة الإعراب يثير قضية التوابع في النحو.

ب) أنشد الفرزدق:

وعَيْنَانِ قَالَ اللهُ كُونَا فَكَانَتا فَعُولاَنِ بالأَلْبَابِ مَا تَفْعَل الخمرُ

فقال ابن أبي إسحاق: ما كان عليك لو قلت: فَعُولَيْنِ". فقال الفرزدق: لو شئْتُ أن أسبّح لسبّحتُ، ونَهَضَ(...) فقال ابنُ أبي إسحاق: لو قال: فَعُولَيْنِ، لأخْبَرَ أنّ الله خلقَهما وأمَرهما، ولكنّه أراد: هما يفعلان بالألباب ما تفعل الخمر.

ومدار الاختلاف بين الرجلين في هذه المناظرة وظيفة "كان" أ تامة هي أم ناقصة. فإن قرئ "فَعُولَيْنِ" (بالنصب) ، فعلى خبر كان. وإن قرئ "فعُولاَنِ" (بالرفع) فعلى تقديرها خبرا لمبتدإ محذوف. وتكون "كان" في الجملة السابقة فعلا تاما.

ج) أنشد الفرزدق:

تُريكَ نجومُ الليلِ والشمسُ حيَّةٌ زحَام بَنَاتِ الحارثِ بْنِ عبَّادِ

فقال عنبسة الفيل: الزِّحام مذكّر. فقال الفرزدق: اغرب[39] .

والاختلاف بين الرجلين في هذه المناظرة يثير مسألة المشترك الصيغي.

والملاحظ في هذه الأمثلة جميعا أن القراءات القرآنية والأشعار قد تركت منذ القرن الأول الهجري، حقلا واسعا من المسائل اللغوية، وأثارت بين علماء ذلك العصر وأدبائه مسائل صوتية وصرفية وإعرابية أثْرث الدرس اللغوي، فبرزت المناظرات، وتعددت الحلقات، خاصة مع أعلام الطبقة البصرية الثانية من أمثال عبد الله بن أبي إسحاق وتلاميذه كما يفيد ذلك من ترجم لهذا الرجل. كما ظهرت المصنفات

[39] للزحام وجهان: أن يكون مصدرا مثل الطّعان والقتال بكسر الزاي ، أو أن يكون جمعا لزحمة فيكون بفتح الزاي.

أيضا، وأول المصنفات في هذه الفترة كتاب "الهمز" لابن أبي إسحاق[40] ، وهو كتاب لم يصل إلينا. ومن المصنفات أيضا كتاب"الجامع" وكتاب "الإكمال في النحو" لعيسى بن عمر الثقفي، وقد مدحهما الخليل ببيتين هما:

ذهب النحو جميعا كله غير ما ألف عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر[41]

كانت حركة رواية اللغة والقراءات القرآنية إذن، مصدرا ثريا للدرس اللغوي العربي.، فكانت بذلك عاملا واضحا في انطلاق الدرس اللغوي و بلورته.

2-3 الجدل الديني وظهور الفرق الكلامية:

بدأ الجدل الديني منذ خلافة عثمان بظهور عبد الله بن سبأ ما بين سنة 30 وسنة 31هـ. فقد انطلق هذا الرجل من اليمن إلى البصرة يطعن في ولاية عثمان وينشر أفكارا تخدم أغراضه عرفها من اليهودية والمجوسية. ومن هذه الأفكار:

1) القول بعقيدة الرجعة: قال: إذا كان عيسى بن مريم سيرجع فكيف لا يرجع محمد؟

2) عقيدة الوصاية: قال: إن كل نبي يوصي لنبي بعده، وإن محمدا أوصى بالأمر لعلي.

إلا أن الجدل الفكري الكبير بدأ مع الفتنة التي أثارها مقتل عثمان سنة 35 هـ ، هذه الفتنة التي اشتدت وأصبحت فتنة كبرى بمقتل علي بعد ذلك سنة 40 هـ. فقد كان لمقتل عثمان صدمة لم يتوقعها المسلمون، وأثار مسألة الخلافة التي نتج عنها بعد ذلك الخلاف بين علي ومعاوية. وكان لمقتل علي نتيجة أخرى شديدة الأهمية، ذلك أنه أثر تأثيرا كبيرا في مسار التفكير الإسلامي. فقد حدث بعد مقتل علي جدل ديني تولّدت عنه سائر الفرق الكلامية التي عرفها التاريخ الإسلامي والتي انطلقت تبحث في مسائل القضاء، والقدر، وأفعال الإنسان، وصفات الله، الخ... وجميع هذه الفرق كانت تعتمد على الحجاج في الدفاع عن نفسها ومهاجمة الخصوم، وكانت تبحث في ذلك عن الأسباب والعلل. وقد امتد أثرها إلى علماء اللغة لتكون عامل ثراء لدرسهم اللغوي. ونبه ابن جني إلى ذلك قائلا: "اعلم أن علل النحويين(...)أقرب إلى علل المتكلمين"[42] .

وهذه العوامل جميعا كان مدارها حول القرآن، ولم تكن لتنفصل عن الدرس اللغوي، ذلك أن عناصر التقاطع بينها وبينه تجعلها في تفاعل معه، فلم يكن هذا الدرس بذلك معزولا إذ أن التفاعل بين

---

[40] ينظر: السيوطي: المزهر، 2/ 398 ؛ مكرم : النحو العربي، ص 116.
[41] ينظر: ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص 29 .
[42] ابن جني: الخصائص، 48/1.

العوامل جميعا إنما يحدُث بترابط على هيئة مدار متماسك العناصر لا تنقطع حركته التأثيرية. ونحن نجسمه على الشكل التالي:

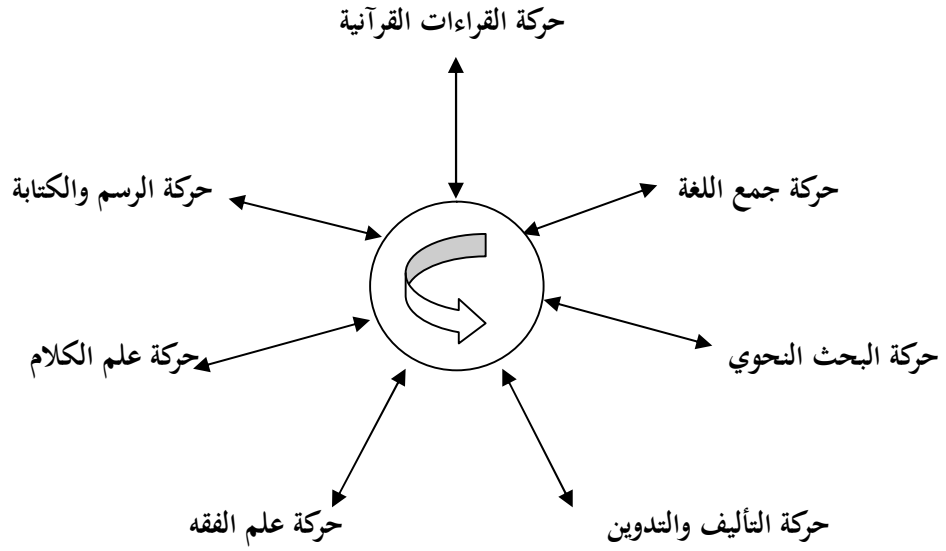

جميع العوامل التي حفّت بنشأة بالدرس اللغوي العربي، هي عوامل نرى أنها جديرة بأن تساعد على انبعاثه و اكتماله . وقد توفرت بالتوازي مع ما عرفته الثقافة العربية من ازدهار ثقافي مطرد بدأ منذ فجر الإسلام. ونبحث الآن عن تجليات هذا الدرس في مظاهره الصوتية والصرفية والنحوية، وصولا إلى تقديم ما يمكن أن يكون إجابة عن السؤال: ما هي المظاهر اللغوية في أولى حلقات نشأة النظرية اللسانية العربية ؟

3- مظاهر الجهود اللغوية المؤثرة في نشأة النظرية اللسانية العربية:

نشير بدءا إلى أن المعارف اللغوية قبل أبي الأسود كانت في جملتها، موجودة في أذهان أصحابها، ونتيجة لذلك لم يطلع عليها أحد، لأنه لم يطلب أحد تعلمها، ولم تكن مدونة في كتاب. ومن تلك المعارف معرفة الشنفرى بأصول التصريف، ومعرفة عمر بن الخطاب بمظاهر العمل الإعرابي، ومعرفة علي بن أبي طالب بمظاهر العمل الإعرابي أيضا، إلى جانب معرفته بأقسام الكلام.

وتتميز المرحلة التي أنيط فيها إلى أبي الأسود وضع النحو، بالاهتمام بالبحث النظري في هذا المجال[43]. ونحن نبحث في ذلك لنرى هل كانت تلك المعارف التي توصل إليها أعلام الطبقات النحوية الأوائل كافية لأن تكوّن الحلقة التي أمدت الخليل بالمعطيات التي ألف من خلالها كتابه "العين". وهذا

[43] ينظر في مثل هذا الرأي:
Encyclopædia UNIVERSALIS : Grammaires (Histoire des), La tradition arabe

يتطلب تتبعا لنتائج جهد أبي الأسود وتلامذته. ففيم تمثلت تلك الجهود اللغوية إذن؟ وما هي نتائجها على مستوى بناء النظرية اللسانية العربية؟

في الحقيقة توجد بحوث كثيرة تناولت الجهود اللغوية التي بذلها أعلام اللغة العربية في المرحلة الأولى من تاريخ النحو العربي. ولا يختلف القديم من هذه البحوث عن الحديث في بيانها، بل إن من البحوث ما كان منها دراسات مفردة تتعلق بعلَم من أولئك الأعلام الأوائل[44]. ولذلك نكتفي في هذه الفقرة بذكر أهم ما انتهت إليه تلك الداسات من نتائج لنقدم من خلالها نظرة تقييمية تتعلق بالتأسيس النظري. ففيم تتمثل تلك النتائج ؟

للإجابة عن هذا السؤال يحسن تصنيف أهم ما توصل إليه الباحثون بحسب المواضيع اللغوية، ليتسنى لنا تبيّن درجة تكاملها وصلوحيتها في بناء نظرية لسانية عامة. وفي مل يلي هذه النتائج بحسب مواضيعها مع التنبيه إلى أن ما نفصله كان يندرج عند القدماء في مفهوم النحو بمعناه الواسع.

3-1 أصول اللغة: القياس والسماع:

ذكرنا في ترجمتنا لابن أبي إسحاق أن تلميذه يونس قال فيه: "هو والنحو سواء، وهو أول مَن علل النحو ، و من أشد الناس أخذا بالقياس والعمل به" . ويتضح من هذا الكلام بروز مبدإ القياس بين أعلام الطبقة الأولى، كأصل من أصول التقعيد اللغوي. وقد كان مفهومه ناضجا في أذهانهم لأنه لو لم يكن كذلك لما أخذ به ابن أبي إسحاق وعمل. ويتجلى هذا الوعي في ما رواه ابن سلام عن يونس. فقد ذكر ابن سلام أنه قال ليونس:"هل سمعت من ابن أبي إسحاق شيئا؟ قال: نعم ، قلت له : هل يقول أحد: الصويق ؟ – يعني السويق– قال: نعم، عمرو بن تميم تقولها، وما تريد هذا، عليك بباب من النحو يطرد وينقاس" [45].

ويتجلى من هذا المثال أن القياس عند أبي إسحاق هو سبك استعمال ما على مثله مما يطرد في كلام العرب. فالمقيس عنده هو ما ينشئه المتكلم من ألفاظ اللغة، والمقيس عليه ما اطرد مما تفوهت به

---

[44] ينظر في ذلك مثلا : الأسطى (محمد عبد الله): أبو عمرو بن العلاء اللغوي والنحوي ومكانته العلمية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1986، 224 ص.

[45] الزبيدي: طبقات النحويين، ص 32 .

العرب فانقاس. والأمثلة على ما كان يقيسه ابن أبي إسحاق وفقا لهذا التعريف عديدة لا يتسع لها هذا المقال، ويغنينا عن ذكرها ما جاء منها في كتب الطبقات.

واعتماد القياس مبدءا في الأشياء يؤدي بالضرورة إلى تحديد الأحكام وذكر العلل. وهو ما حدث لابن أبي إسحاق بناءا على ما ذكر في ترجمته من كونه " أول مَن علل النحو" .

وإن الاعتراض على مبدإ القياس ممكن، إذ يجوز ألا يكون معيارا سليما أحيانا، فيستدعي الاعتراض عليه مبدأ آخر يوازيه . وهذا ما حدث في الدرس اللغوي العربي. فقد جاء من يقول بالسماع بإزاء قول ابن أبي إسحاق بالقياس. وكان ذلك على يد عيسى بن عمر الثقفي وأبي عمرو بن العلاء كما هو بيّن في ترجمتنا لهما أعلاه. فالأول اشتد شغفه بالسماع حتى ولع بالغريب. والثاني اعتد بالسماع فلم يستثن حتى ما كان لهجة. والحاصل من كل هذا أن الدرس اللغوي العربي شهد في مرحلة نشأته بروز أصلين من أصول اللغة هما السماع والقياس مع ما يستدعيه العمل بهما من الأحكام.

3-2 علم الأصوات:

1) الصوائت:

من أبرز الجهود المتعلقة بعلم الأصوات استنباط أسماء الصوائت ، ورموزها، ووصف عمل أعضاء النطق أثناء إنجازها، ويتجلى ذلك في الطريقة التي بيّن بها أبو الأسود رسم علامات الشكل الإملائي. وفي ذلك قال أبو عبيدة بن المثنى : أخذ أبو الأسود عن علي العربية . فسمع قارئا يقرأ: "إن الله بريء من المشركين ورسوله"، فقال : ما ظننت أمر الناس قد صار إلى هذا. فقال لزياد الأمير (زياد ابن أبيه): ابغني كاتبا لقنا، فأتى به، فأعطاه أبو الأسود مدادا أحمر ثم قال له : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة أعلاه ، وإذا رأيتني قد ضممت فمي ، فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت ، فانقط نقطة تحت الحرف، فإذا أتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين . فهذا نقط أبي الأسود" [46] .

وما يستنتج من ذلك أن الكتابة العربية قبل أب الأسود كانت تفتقر إلى علامات للصوائت . فابتكر لها أبو الأسود علامات، وهي النُّقَطُ. ورأى أن تُكتب هذه النُّقَط بصبغ يخالف لون المداد الذي تكتب به الحروف ونُقَطُهَا. وقد طبَّق أبو الأسود هذا النقط في المصاحف أوّلا.

و الصوائت كما رآها أبو الأسود، أربعة، وهي: الفتحة، والضمة، والكسرة، والغنّة (التنوين).

---

[46] ينظر: الداني: نقط المصاحف، ص 7 ؛ سير أعلام النبلاء (معجم إلكتروني)، الموقع: http://alminbar.al-islam.com/Alam.aspx?nid=11822 ؛ موسوعة الدعوة، المبحث السادس:عناية المسلمين برسم المصحف خدمة للقرآن الكريم ، الموقع:
http://alminbar.al-islam.com/mehwar_daawa.aspx?View=Page&PageID=7&PageNo=1&BookID=141&word=images/books/323.doc&pdf=images/books/323.pdf

وما قام به أبو الأسود في هذا المجال يُعدّ إنجازا كبيرا وبداية لدرس صوتي عميق تجلت نتائجه لاحقا في ما سجله الخليل في كتابه "العين" حول مخارج الأصوات وصفاتها، وحول الصور الجديدة للحركات. وقد نقل الداني (ت 444 هـ) في كتابه " المحكم في نقط المصاحف "، رواية عن المبرد (ت 286 هـ) في ما قام به الخليل من تطوير لتلك الصور يقول فيها:" الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل، وهو مأخوذ من صور الحروف، فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف ؛ لئلا تلتبسَ بالواو المكتوبة، والكسرة ياء تحت الحرف ، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف"[47].

أما السكون، فيقول أبو عمر بن سعيد الداني إن أهل المدينة يجعلون علامته دارة صغيرة فوق الحرف ، وآخرون يجعلون علامته خاء ، يريدون بذلك أول كلمة خفيف ، وبعض أهل العربية يجعل علامته هاء[48].

وبذلك نخلص إلى أن وضع رموز الحركات (الفتحة، والضمة، والكسرة، والسكون)) بدأت منذ وقتٍ مبكر ، واستمرت الجهود في ذلك ، إلى أن استقرَّ الأمر على ما توصل إليه الخليل بن أحمد[49].

ونرى أن الذي بعث أبا الأسود إلى اختيار تلك الطريقة في وضع علامات الإعراب، ما يمكن أن يتعرض له من مساءلة في أسباب ذلك. والظاهر في طريقته تلك أنه اعتمد على مخارج الحركات وصفاتها مقياسا، ذلك أن "موضع الفتحة من الحرف أعلاه ؛ لأنَّ الفتح مستعل. وموضع الكسرة منه أسفله ، لأنَّ الكسر مُسْتَفِل. وموضع الضمة منه وسطه أو أمامه ، لأن الفتحة لمَّا حصلت في أعلاه، والكسرة في أسفله، لأجل استعلاء الفتح وتَسَفُّل الكسر، بقي وسطه، فصار موضعًا للضمة" [50]. ونعتبر هذا أساسا للدراسة الصوتية التي أقامها الخليل لأصوات العربية في كتاب العين.

ولا بدّ أن أبا الأسود افترض جدلا عن علل الإعراب من قبيل: لماذا رفعت هذه الكلمة ونصبت تلك. ونعتقد أنه فكر في أجوبة قد يكون ضمنها في الوثيقة التي كتب فيها أبواب النحو والتي لم تصل إلينا. كما نعتقد أنه علّم تلامذته ذلك، فيكون ذلك إضافة جديدة إلى بعض المبادئ النحوية العامة.

2) الصوامت:

خطا علم الأصوات في المرحلة الأولى من تأسيس الدرس اللغوي العربي خطوة أخرى تتجلى في ابتداع طريقة في الرسم للتمييز بين الصوامت المتشابهة. وتتمثل هذه الطريقة في إعجام الحروف. ويقال أن الحجاج بن يوسف ندب لهذا الموضوع نصر بن عاصم تلميذ الخليل كما ندب زياد ابن أبيه، قبل ذلك، أبا الأسود لوضع رموز للحركات. فقد ساء الحجاجَ خلطُ الناس بين الحروف المتشابهة إذ كان كثير منهم لا يفرق بين

---

[47] الداني : نقط المصاحف، ص 7.
[48] ينظر المرجع نفسه، ص 51-52 .
[49] ينظر المرجع نفسه، ص 6.
[50] ينظر المرجع نفسه .

الباء والتاء والثاء والياء وغيرها من الحروف المتشابهة. ولهذا كثر الخلط والتصحيف في لفظ الكلمات. فجاء نصر بن عاصم ووضع لهذه الحروف وغيرها نقاطا سوداء أفراداً وأزواجاً، مقابل حروف لم تُنْقَطْ سمَّوْها مُهْمَلَة[51].

أما تنقيط التشديد، والهمز، والاشمام (الوصل) فكان من وضع الخليل[52] . ويشرح صاحب كتاب "المحكم" طريقة التشديد بقوله:" وثمة مذهبان ، أحدهما : أن تجعل علامته أبدًا فوق الحرف(...) وصورة التشديد على هذا المذهب شين (...) وهذا مذهب الخليل وسيبويه وعامة أصحابهما (...) والوجه الثاني : أن تجعل علامة التشديد دالًا فوق الحرف المفتوح، وتحته إذا كان مكسورا، وأمامه إذا كان مضمومًا..."[53]

.

ويذكر الداني في محكمه رواية فحواها أنّ القرآن كان قبل ذلك مجردًا من الإعجام "فأول ما أحدثوا فيه النَّقْط على الياء والتاء (...) ثم أحدثوا فيه نُقَطًا عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم[54]. ونجد أن تلاميذ أبي الأسود، وهم نصر بن عاصم، ويحي بن يعمر، وعبد الرحمن بن هرمز، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، هم الذين قاموا بهذا بالإعجام وإن كان البادئ بذلك هو نصر بن عاصم.

وبهذا تكون اللغة العربية قد شهدت نوعين من التنقيط، أحدهما أحمر وهو الذي ابتكره أبو الأسود لرسم الحركات، والآخر أسود وهو الذي جعله نصر بن عاصم لإعجام الحروف. وبذلك يكون اللغويون الرواد قد وضعوا للغة العربية أسسا صوتية شهدت اكتمالها تباعا مع من جاء بعدهم.

3-3 علم الصرف:

تجلت أهم نتائج البحث الصرفي في مسألتين هما أقسام الكلام، ومبادئ الاشتقاق.

1) أقسام الكلام :

ذكر هذه الأقسام علي بن أبي طالب كما بينا ذلك في الفقرة:1-2-1. ورأى أن الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل . و طلب من أبي الأسود تسجيلها والنظر فيها، ففعل ذلك.

---

[51]- ينظر: ابن خلكان: وفيات، 32/2.

- توجد روايات تاريخية تُرجع عصرَ نَقْطِ الإعجام إلى زمن الصحابة، وقبل أن يُكتب المصحف الأول في عهد عثمان بن عفان . وقد أشار بعض المؤرخين إلى وثيقةٍ من وثائق البُرْدي ، يرجع عهدها إلى عام 22هـ، وفيها حروف منقوطة (ينظر: الحلواني (محمد خير): المفصل ، ص 68). لكن هذه الرواية وإن اختلفت، فإنها تبيّن هي أيضا أنّ محاولات التنقيط الحقيقية لتنظيم اللغة كانت مبكرة وكان كلها في فجر الإسلام .

[52] الداني: نقط المصاحف، ص 6

[53] المرجع نفسه، ص 49-50.

[54] المرجع نفسه، ص 2.

2) أقسام الاسم:

جاء في ذلك أن علي بن أبي طالب ألقى إلى أبي الأسود صحيفة أو رقعة فيه أقسام الاسم ، وأنه قال له: "واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود في ما ليس بظاهر ولا مضمر، وأراد بذلك الاسم المبهم " [55].

3) مبادئ الاشتقاق :

تجلى الوعي بهذه المبادئ من خلال الرواية التالية التي أوردها أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 210 هـ) في كتابه " مجاز القرآن" نقلا عن يونس بن حبيب عن ابن أبي إسحاق، قال: وزعم يونس عن ابن أبي إسحاق قال: أصل الكلام بناؤه على "فعل" ثم يبنى آخره على عدد من له الفعل من المؤنث والمذكر، من الواحد والاثنين والجميع، كقولك: فَعلتُ، وفَعَلنا، وفَعَلْنَ، وفَعَلاَ، وفَعَلُوا. ويزاد في أوّله ما ليس من بنائه، فيزيدون الألف كقولك: أعطيْتُ، وإنما أصلها: عطَوْت. ثم يقولون: مُعطًى، فيزيدون الميم بدلا من الألف، وإنما أصلها: عاطِي. ويزيدون في أوساط "فَعَلَ": افتَعَلَ،واستفْعَل، ونحو هذا ؛ والأصل: فَعَلَ، وإنما أعادو هذه الزوائد إلى الأصل ، فمن ذلك في القرآن: "وأرسَلْنا الرياحَ لَواقِحَ"، وإنما يريد: "الريح مُلقِّحَة"، فأعادوا إلى الأصل"[56] .

يتبيّن من هذه الرواية فهْمٌ لمسألة الاشتقاق ومظاهرها. والمصطلحات المستعملة تدل على ذلك وإن كان يتداخل فيها الصرفي بالتصريفي نظرا لشمولية مفهوم النحو قديما. فمن المصطلحات الصرفية المصطلح: "أصل" المادة الاشتقاقية، وهي هنا جذع الكلمة المجرد ؛ والمصطلح "زوائد". ومن المصطلحات التصريفية، المصطلحات: "مؤنث" و "مذكر" و "الواحد" و "الاثنين" و "الجميع" (بمعنى: الجمع). جانب هذه المصطلحات نلاحظ الاستعمال الواعي للصيغة النظرية المجردة "فَعَلَ" نمطا للتمييز بين الأصل والفرع، كما نلاحظ أيضا الفهم السليم لأنواع الزوائد ومواضعها.

ونشير في هذا الصدد إلى أن هذا المثال لا يقدم إلا عينة مما وصل إليه البحث اللغوي في مجالي علمي الصرف والتصريف خلال القرن الأول للهجرة والنصف الأول من القرن الثاني. فالنماذج في ذلك متعددة. ويمكن في حال تقصيها من كتب الطبقات أن تكشف عن مظاهر أخرى. إلا أنّ ما قدمناه يكفي دليلا على أنّ نظرية اللسانية العربية منذ بداية نشأتها أسسا ذاتية نابعة من استقراء العلماء للغة العربية.

---

[55] ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص ص 18-19 ؛ القفطي : إنباه الرواة 4/1.
[56] ابن المثنى: مجاز القرآن، 376/1-377.

3-4 علم الإعراب:

تمثلت أهم الجهود فيه في الاهتداء إلى ما يمثل مكونات الجملة في بنيتها النظرية المجردة من حيث كون هذه البنية محلات إعرابية تتأتي بالعمل الإعرابي وعوامله. و هذه نتيجة تدرك من استعمال اللغة ذاتها ويكتشفها من يتميز بكفاية كبيرة في فهم لغته دون أن يحتاج إلى إسقاطات من نظريات أخرى. وقد تجلت نتائج البحث في ذلك في مسألتين رئيسيتين يمكن أن تبنى عليهما مسائل أخرى عديدة من باب التفريع الذي يؤدي إليه الجدل فيهما. وهاتان المسألتان هما:

1) عناصر تكوين الجملة:

تمكن أبو الأسود الدؤلي من وضع أبواب الفاعل، والمفعول، والمضاف، العطف، والنعت، والتعجب، والاستفهام. وكان يشرف على عمله هذا على علي بن أبي طالب إذ كان كلما انتهى من باب عرضه عليه [57].

و ذكر أبو حرب، وهو أحد أبناء أبي الأسود، أنّ أول باب وضعه والده من هذه الأبواب باب التعجب[58]. وهذا ليس مستبعدا. فقد تواترت الروايات بأن هذه المسألة قد واجهت أبا الأسود مع ابنته. وفي ذلك يورد المبرد عن المازني أنه قال : السبب الذي وضعت له أبواب النحو أن بنت أبي الأسود قالت له : ما أشدُّ الحرِّ ! فقال : الحصباءُ بالرمضاءِ ، قالت : إنما تعجبتُ من شدّته . فقال : أوَ قَدْ لَحَنَ الناسُ ؟ فأخبر بذلك عليا – رضي الله عنه – فأعطاه أصولا بنى منها ، وعمل بعده عليها [59].

وهذه الأبواب ليست مستعصية على أبي الأسود، فهو الذي ابتدع علامات الإعراب، بل إنّ ظاهرة الإعراب مسألة كان يدركها أيضا أعلام من معاصريه مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب كما أشرنا إلى ذلك آنفا (ف 2). ويرجح ابن النديم في كتابه "الفهرست" ذلك. ويستدل عليه بما رواه محمد بن إسحاق من "أنه كان بمدينة الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين (...) جماعة للكتب (...) له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة، تحتوي على قطعة كبيرة من الكتب العربية في النحو، واللغة، والأدب، والكتب القديمة. قال محمد بن إسحاق: فلقيت هذا الرجل دفعات، فأنس بي، وكان نفورا ضنينا بما عنده، خائفا

---

[57] ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص5. ؛ الزبيدي : طبقات النحويين ، ص21 ؛ ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص ص 18-19

[58] ا لاصبهاني: الأغاني، (فقرة: أخبار أبي الأسود الدؤلي ونسبه، 5/ 1398)، الموقع: http://free-arabic-books.blogspot.com/2010/02/blog-post_07.html.

[59] ينظر سير أعلام النبلاء(معجم إلكتروني)، الموقع: http://alminbar.al-islam.com/Alam.aspx?nid=11822

من حمدان، فأخرج لي قمطرا كبيرا (...) ورأيت فيه ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته، وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترمتها: هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود، رحمة الله عليه، بخط يحي بن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق: هذا خط علاّن النحوي، وتحته هذا خط النضر بن شميل. ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه. فما سمعنا له خبرا [60].

على أن جهود علماء اللغة الرواد لم يخف عليهم وجود نوع آخر من الجمل لا يقوم على الفعل والفاعل والمفعول. فقد تمكن يحي بن يعمر من معرفة هذه الجملة، وهي الجملة الاسمية، وإن لم يسمّها، يتجلى ذلك في قصته مع الحجاج التي أوردناها آنفا في ف:2-1، فقد ذكر ركنا من أركانها وهو الخبر، ونبه إلى التغير الإعرابي الطارئ عليه، وهو النصب، و العامل في ذلك. فقد قال للحجاج: "والوجه أن تقرأ بالنصب على خبر كان".

2) عوامل الإعراب ::

استطاع أبو الأسود أن يهتدي إلى بعض هذه العوامل وأن يقدم نموذجا لتصنيفها. ومما صنفه من ذلك حروف النصب. فقد أورد الزجاجي أن أبا الأسود قال: فَجمْعتُ منها أشياءَ وعرضتها عليه (على علي)، فكان من ذلك: حروف النصب، فذكرت منها: إنّ، وأنّ، وليت، ولعلّ، وكأنّ، ولم أذكر لكنّ. فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها. فقال: هي منها، فزدها [61].

و يلاحظ في مثل هذا التصنيف قدرة أبي الأسود على الوصف اللغوي، ورَصْد الظواهر المتبدِّلة في التركيب، وتحديد عواملها الإعرابية، واستنباط أحكامها.

3-5 الجهاز المصطلحي:

يعدّ الجهاز المصطلحي في البحث اللساني أداة رئيسية لسبر المظاهر الغوية. ولم تخل جهود أعلام المرحلة الأولى من تاريخ النحو العربي من هذا الجهاز . وهو جهاز نجده مبثوثا في ما دوّنه الرواة مما كان -ور بين العلماء من جدل في المجالس والمناظرات. وهذا الجهاز فيه من المصطلحات ما كان ناضجا مثل المصطلحات: فاعل، ومفعول، وخبر، وزوائد، ونصب، ورفع، وهي مصطلحات أولية يفرزها الوصف اللغوي منذ البداية؛ وفيه من المصطلحات ما لم يتبلور أو لم يمكن له الظهور لأن الدرس اللغوي لم يكتمل. و هذا الجهاز نرى أنه هو الرصيد الأساسي الذي أخذه اللاحقون فاعتمدوا عليه في بحوثهم وسجلوه في ما ألفوا من كتب مع ما يمكن أن يضاف إليه من تطور شكلا ومضمونا. وعليه لم يكن الدرس اللغوي الذي سجله الخليل في كتابه العين، ومن بعده سيبويه في الكتاب، حدثا معزولا، أو طفرة،

---

[60] ابن النديم : الفهرست، المقالة الثانية: في أخبار النحويين واللغويين، ص 46.
[61] ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص ص 18-19.

أو جملة إسقاطات من ثقافة أجنبية يونانية كانت أو سريانية أو غيرهما. فالمنطق اليوناني على سبيل المثال، لم يكن في هذه المرحلة قد تُرجِم حتى يقال أن هؤلاء النحاة قد تأثروا به. ولو اتخذه هؤلاء النحاة منهجا لما أغفل ابن خلدون ذلك أثناء حديثه عن صناعة النحو العربي، بل إن المنطق اليوناني التقليدي لم يهتد إلى طبيعة العلاقات الإسنادية بجميع تفاصيلها [62]، وهذا يعني أحد أمرين: إما أن النحاة العرب استوعبوا المنطق اليوناني ثم تجاوزوه في إدراك العلاقات الإسنادية، وإما أنهم نظّروا للغتهم بعيدا عن هذا المنطق خلال الحقبة التي ندرس، والاحتمال الثاني هو الراجح، وبالتالي فإن ما انتهى إليه الدرس اللغوي في كتاب العين إنما هو ، حاصل مسيرة جهود لغوية بدأها أبو الأسود الدؤلي "ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد وكان الناس أحوج إليها (...) فهذّب الصناعة و كمّل أبوابها "[63]. وقد بدأها أبو الأسود بالنقْط ، فَنَقَطَ المصحف "ورسم من النحو رسوما، ثم جاء بعده ميمون فزاد عليه في حدود العربية، ثم زاد فيها بعده عنبسة بن معدان، ثم جاء عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وأبو عمرو بن العلاء، فزادا فيه. ثم جاء الخليل بن أحمد الأزدي فلحب الطريق"[64].

4- الخاتمة:

إن ما قدمنا إنما هو صورة عن بعض جهود علماء اللغة العر بية في ا المرحلة الأولى من تكوّن النظرية اللسانية العربية. ولم يكن من الميسور لهؤلاء العلماء أن يتوصلوا إلى ما ذكرنا من النتائج لولا ما كان بينهم من التكامل والتتابع. وقد كانت هذه المرحلة في عمومها مرحلة تأسيس. ولذلك فإن ما تركه أبو لأسود ومن عاصره وجاء بعده إلى نهاية النصف الأول من القرن الثاني للهجرة في حقل البحث اللغوي، هو المعطيات الأساسية التي تأسس عليها الدرس اللغوي في العربية. وهي معطيات توفر لها من الأسباب والعوامل ما ما دفع هؤلاء العلماء إلى البحث والتقصي، وإثارة المسائل والقضايا ووضع المفاهيم إلى الحد الذي اكتملت به الركائز الأساسية النظرية اللسانية العربية. وقد استوعب الخليل تلك المعارف التي كانت

---

[62] ينظر : Ghodbane (Y.) : Forme grammaticale et forme logique, pp5-7

[63] ابن خلدون: المقدمة، ص 339 . ويذكر ابن خلدون مراحل الدرس النحوي بعد ذلك، فيذكر أنه بعد الخليل، جاء سيبويه ، فأخذ سيبويه عن الخليل هذه الصناعة (صناعة النحو)، " فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماما لكل من كتب فيها من بعده. ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه. ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة (...)، وكثرت الأدلة والحجاج بينهم، وتباينت الطرق في التعليم، وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد، وطال ذلك على المتعلمين، وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل، وابن الحاجب في المقدمة له، وربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفية(ابن خلدون: المقدمة، ص 340) .

[64] الاصبهاني(أبو الفرج): الأغاني (فقرة: أخبار أبي الأسود الدؤلي ونسبه، 5/ 1397)، 102/11.
http://free-arabic-books.blogspot.com/2010/02/blog-post_07.html.

معروفة قبله وفي زمنه، وزاد عليها، ثم جمعها في كتابه العين. وجاء تلميذه سيبويه،وأضاف، وسجل كل ذلك في كتاب جامع أثار الإعجاب. فكان كتاب العين للخليل والكتاب لسيبويه حاملين لنظرية في الدرس اللغوي هي نتيجة جهد بنياه على ما سبقهما مما كان علماء اللغة يتجادلون في مسائله، وهكذا تكونت النظرية اللسانية العربية في نظرنا.

محمد شندول

قائمة المراجع[65]:

1) ابن الأنباري (أبو البركات عبد الرحمان): **نزهة الألباء** في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي،ط3، مكتبة المنار، الأردن، 1985.

2) ابن المثنى (أبو عبيدة معمر): **مجاز القرآن**، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتب الخانجي، مصر، 1954 .

3) ابن جني(أبو الفتح عثمان) : **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار،دار الكتاب العربي، بيروت، 1953.

4) ابن خلدون (عبد الرحمان):**المقدمة** ، تحقيق حُجر عاصي، دار ومكتبة الهلال،بيروت، 1983.

5) ابن خلكان أبو العباس أحمد بن محمد): **وفيات** الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1969 .

6) ابن سلام (محمد): **طبقات الشعراء**، دار النهضة العربية،، بيروت، د.ت

7) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر) : **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، 1997.

8) ابن النديم (محمد بن أبي يعقوب): الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان، ط2، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1997.

9) ابن هشام (عبد الملك): تهذيب **سيرة ابن هشام**،. تحقيق عبد السلام هارون، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981.

10) الاصبهاني (أبو الفرج): الأغاني، ط2، مطبعة التقدم، مصر، د.ت.

[65] اكتفينا في هذه القائمة بذكر ما أحيل إليه في البحث من الكتب دون المواقع الإلكترونية، ورتبناه ترتيبا ألفبائيا بحسب ألقاب المؤلفين، ورسمنا بخط غليظ مختصرات العناوين التي اعتمدناها في الإحالة.

11) الحلواني (محمد خير): ***المفصل*** *في تاريخ النحو* العربي، مؤسسة الرسالة – بيروت، 1979.

12) الخثران (عبد الله بن حمد): مراحل تطور **الدرس النحوي**، دار المعرفة الجامعية،الاسكندرية، 1993

13) الداني (أبو عمرو عثمان بن سعيد): المحكم في **نقط المصاحف**، تحقيق عزة حسن، ط2، دار الفكر، بيروت، 1997.

14) الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار التراث، القاهرة، 1984.

15) –القفطي(جمال الدين علي بن يوسف): **إنباه الرواة** على أنباه النحاة، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986.

16) كريمر: **الحضارة الإسلامية** ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، ترجمة مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي، القاهرة.

17) مكرم عبد العال) : الحلقة المفقودة في **تاريخ النحو** العربي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.

18) Carter(M. G) : *A Study of Sibawayhi's Principles of Grammatical Analysis, Ph. D. Diss, Oxford*, 1968.

19) Encyclopædia UNIVERSALIS : Grammaires (Histoire des), La tradition arabe.

20) Ghodbane (Yasmina) : Forme grammaticale et forme logique de la proposition dans la logique contemporaine, in : Actes du colloque : Renouvellement des Études Linguistiques Arabes : Acquis et Perspectives, FLM , 2-4 Avril 2009, Tunis.

21) Hadj salah(A.): Les origines de la grammaire arabe, Revue des études islamiques, 40/1972

22) Troupeau(G) : La Logique D'Ibn Al-Muqaffa' Et Les Origines De La Grammaire Arabe, Arabica,V.28 ,$n^0$2-3,1981,pp.242-250.